بين الأبصار والبصائر

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

امتاز الأدب العربي بطائفة من العُميان فقدوا نعمة البصر ولكنهم لم يفقدوا نعمة الذكاء والفهم والبصيرة . حتى لقد بلغ بعضهم منزلة يحسده عليها المبصرون .

وفي كل أمة طائفة من هؤلاء ، اشتهروا بحسن الأثر ، وجليل العمل . وعند الإنجليز منهم أمثال الدكتور أرميتاج ؛ والقس توماس برنارد ، والسير فرنسيس كامبل ، ودكتور رانجر ؛ والسير روبرتسون تندال ، وهنري تايلر ، والسيدة هيلين كيلر.

وعند الفرنسيين منهم أمثال السيدة جاليرون دي كاليرون وعند العرب أمثال أبي العلاء المعري ، وبشار بن برد ، وحماد بن زيد الضرير .

والذي يولد أعمى يقال له أكمه . ومن هؤلاء عندنا بشار ابن برد وقد جمع إلى الكمه جحوظ العينين وضخامة الخلقة وعظم الوجه .

ومن العميان من أصابه العمى في طفولته ، كما حدث للمعري . وقد اعترف هو بذلك في احدى رسائله إلى داعي الدعاة .

وقد يكون العمى في الصغر نتيجة لشيء آخر غير المرض . كما حدث للقس برنارد الإنجليزي وللسير فرنسيس كامبل الذي جنت على بصره لعبة طائشة .

أتذوق بحسي ، وأنظر بعيني ، وأسمع بأذني . وإن كان للعقاد فضل التوجيه في الطريق العام .

عندئذ بدأت أسكت عن كل اتهام . وبدأت أتحدث عن أستاذية العقاد لي وتلمذتي له ، وبدأت أسخر من بعض «شبان» الجيل الذين يحسبون هذا مطعناً يوجهون إليّ منه الغمزات ! فأؤكد لهم التهمة التي يلمحون بها أو يصرحون !

وإني لأضحك وأسخر من الكثيرين ، الذين كلما رأوا أنفسهم ينتفعون ببعض الشخصيات ، خافوا أن يضبطهم الناس متلبسين فراحوا يعلنون تجاهلهم التام أو خصومتهم القوية لهذه الشخصيات ، على طريقة السذج من المتهمين الذين إذا سئلوا : هل سرقتم من بيت فلان ؟ كان الجواب : إننا لم نعرف فلاناً هذا ولا بيته في يوم من الأيام !

وبعد فأنا أرى الآن أن المعرفة الشخصية قد تكون ضرورية في أحيان ، وغير ضرورية في أحيان ؛ وذلك حسب طبيعة الفنان ، فبعضهم يغنيك بما يكتبه عن معرفته لأنه يكتب ما يشبه الاعترافات كابن الرومي والمازني . وبعضهم لا بد أن تعرفه وبعضهم تزيدك معرفته علماً بفنه ...

* * *

تلك خلاصة رأيي في النقد والنقودين ، فإذا كان الأديب الفاضل لاحظ أنني ذكرت عدم معرفتي لبعض من كتبت عنهم من الشبان ، فإنما كان ذلك لأنني لم أعرفهم فعلا ؛ ولم تكن لدي الفرصة لمعرفتهم من قبل . كل ما هنالك أنني وجدت بين يدي أعمالاً أدبية تستحق التنويه ؛ فلم يكن من الميسور أن أتعرف إلى أصحابها لأكتب عنها مقالة عابرة . ورأيت أن أكون أميناً ، فلا أدعي معرفتي الكاملة لهذه الشخصيات ، ولا أزعم أن ما كتبته هو كل ما هنالك . فأعلنت أنني لا أعرفهم ، وهذا يتضمن في طياته بعض العذر إذا كنت لم أحط بكل جوانبهم .

ومنذ عامين لديّ كتاب عن «المدارس الأدبية المعاصرة» وما يؤخرني عن كتابته إلا استيفاء بعض الدراسات الشخصية لأبطاله . وقد استطعت أن أجمع عن كثب معظم ما أريد جمعه عن « العقاد وتوفيق الحكيم » وشيئاً مما أريد جمعه عن « طه حسين . والمازني » وقليلاً جداً عن « المنفلوطي والزيات » ومتفرقات عن « تيمور وحقي ولاشين» وآخرين ...

وبعد ما أستوفي هذه الدراسات — لا قبله — سآخذ في الحديث عن « المدارس الأدبية المعاصرة » . ولو صرفت عامين آخرين . فأنا أقدر قيمة هذا العمل وأعرف ما هو مطلوب مني إزاءه . ويومها سأحقق ما يقترحه عليّ الشاب الأديب .

سيد قطب

وقد يكون العمى نتيجة لحادث مقصود لذاته ، كتوقيع عقوبة أو تنفيذ حكم . كما حدث لأمير المؤمنين المتقى الخليفة العباسي الذى خلعه الثوار وسملوا عينيه ، ولم يمنعهم دينه وصلاحه وكثرة صلاته وقيامه من تعذيبه على تلك الهيئة . واجتمع عليه فقد البصر وعذاب السجن خمسة وعشرين عاما احتملها صابراً راضياً مذعناً لقضاء الله . وله فى ذلك أبيات مؤثرة يقول فيها :

سملونا وما شكو نا إليهم من الرمد
ثم عاثوا بنا ونحـ ن أسودٌ وهم نقدْ
كيف يفتر من أقا م وفى دستنا قمد

وكما حدث للوزير محمد بن بقية وزير بنى بويه الذى رثاه ابن الأنبارى الشاعر بقصيدته المشهورة التى مطلعها :—

علو فى الحياة وفى الممات لحق تلك إحدى المعجزات

وهذه القصيدة وزعت فى شوارع بغداد خفية — كما توزع اليوم المنشورات السرية — إلى أن بلغ خبرها ابن بويه فتمنى أن يكون هو المصلوب وأن تكون القصيدة قيلت فيه .

ومن الناس من يصاب بالعمى على سن عالية كما حدث للدكتور أرميتاج الإنجليزى من رجال القرن التاسع عشر ، فقد كان جراحا نابهاً وبرع فى علم النبات براعة جعلته من أكبر الثقات فيه . وأتقن الألمانية كأنه وهو يتكلم بها لا يستعمل لغة غربية ، فلما نزلت به البلية لم يستكن إلى محبس العمى وسجن الظلام بل استطاع أن يقدم إلى إخوانه فى البلاء أجل المساعدات التى جعلته فى عداد الآخذين بيد المكفوفين العاملين على تحسين أحوالهم وتهوين الحياة عليهم .

ومن هؤلاء فى أدبنا العربى صالح بن عبد القدوس صاحب البيت المشهور :—

ما يبلغ الأعداء من جاهل مايبلغ الجاهل من نفسه

فقد ذاق متع الدنيا ولذاذات العيش وهو بصير ، فلما عمى لزم بيته وأوى إلى محبسه ، ووجد فى الوحدة أنساً وفى العزلة سروراً . وعبر عن ذلك بقوله :—

أنست بوحدتى فلزمت بيتي فتم العز عندى والسرور
وأدبنى الزمانِ فليت أنى هجرت فلا أزار ولا أزور

وله أبيات مؤثرة يخاطب بها عينه الذاهبة بقوله :—

عزاءك أيها العين السكوب ودمعك أنها نوب تنوب
وكنت كريمتى وسراج وجهي وكانت لى بك الدنيا تطيب

ومنها :—

على الدنيا السلام فما لشيخ ضرير العين فى الدنيا نصيب
يموت المرء وهو يعد حيا ويخلف ظنه الأمل الكذوب
يمنينى الطبيب شفاء عينى وما غير الإله لها طبيب
إذا ما مات بعضك فابكِ بعضاً فإن البعض من بعض قريب

* * *

وممن أصيب بالعمى على كبر عطاء بن رباح الذى ولد فى خلافة عثمان بن عفان ، وكان تابعياً جليلاً . انتهت إليه الفتوى بمكة وشهد له أبو حنيفة بالفضل .

ومنهم عقيل بن أبى طالب أخو الإمام على ؛ وقد اجتمع له من علم النسب وأيام العرب شىء كثير .

ومنهم عبيد الله بن العباس ابن عم النبى عليه السلام ، وأبو الخلائف من الدولة العباسية . وكان فقيهاً عظيما . وبلغ من فقهه أن الخليفة عمر كان يستشيره فى مسائل الفقه . هذا إلى وضوح فى الحجة ، وجهارة فى الرأى ، وقوة فى البرهان .

* * *

وليس فى الدنيا من يشتهى العمى ويطلبه ، فهو شىء بغيض إلى النفوس ؛ حتى ليدعى به على المكروه ، ولكن شاعراً واحداً تمناه لنفسه فكان له ما تمنى ...

أما الشاعر فاسمه المؤمل بن أميل ؛ وأما قصته فكما يأتى :—

أحب امرأة من الحيرة ؛ ورآها فجنت عليه نظرته إليها فقال :—

شفّ المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر

فما عتم طويلاً حتى تحقق ما تمناه ، وضاعت منه عيناه ...

ولم يبلغ أحد فى الأدب العربى كله منزلة أبى العلاء ، وهو فى الشعر من هو . أما فى التأليف فقد عد له المرحوم تيمور باشا أربعة وسبعين كتاباً ؛ ليست مثل كتب السيوطي ... ولكنها

مثل « رسالة الملائكة[1] » و « الفصول والغايات » و « رسالة الغفران » .

* * *

استعمل العمى فى القرآن بمعنى الضلالة والحيرة . وذلك شر أنواع العمى . أما فقد البصر فقد يخففه ويفنى عنه تفتح البصيرة وتنور القريحة . ونحن نجد الآن بعض المكفوفين يفوقون المبصرين إدراكاً للأمور وخوضاً فى المعترك الحيوى ، وهم ليسوا كمكفوفى الأمس يخلدون إلى الدعة ويلتزمون المحابس فى دورهم ، ولكنهم يشتركون فى الحياة العامة .

فالسير فرنسيس كامبل حصل على أعلى درجة من جامعة جلاسجو وهو أعمى . وكافح فى الحياة ، واحتل مكاناً بارزاً فى الحياة الإجتماعية بانجلترا حتى استحق لقب « سير » وهو به جدير .

والسيدة هيلين كيلر لم يمنعها العمى من التأليف المجدى فى علم النفس ودرس نفسيات الأطفال . وكتاباها حجة فى هذا الموضوع .

والشاعرة الفرنسية مدام جاليرون دى كالون « Galeron de Calonne » لم يعطل العمى مواهبها فى الشعر وبراعتها فى الخيال . وهى تعبر عن ذلك فى قصيدة لها عنوانها « ماذا يهم ؟ » تقول منها :—

لن أراك بعد هذا أيتها الشمس الساطعة
ولكنى سأحس حوادثك
لن أراك بعد هذا ياسناء الورود
ولكن السماء قسمت حظوظنا
فاذا يهم الضياء ؟ — إن عندى روح الأشياء
لن أرى بعد هذا بهاء الورود
ولكن عندى عبيرها الفوّاح .

* * *

والدكتور رانجر مثال لشجعان المكفوفين . فلم يقنط على نفسه بل حصل على أجازة الحقوق وهو ضرير . واشتغل بالمحاماة واشترك فى مجامع عديدة للعميان وصار إلى أشرف الأمر الإنجليزية .

والسير روبرتسون تندال لا يقل عنه شجاعة فقد ناضل واشترك فى الهيئة الإجتماعية ، وألقى دلوه مع المبصرين حتى شرفته مدينة بريتون الإنجليزية بالنيابة عنها فى مجلس النواب .

والمستر هنرى تايلر أكمل نفسه بالعلم — وهو ضرير — فاختير فى سنة ١٨٩٨ رفيقاً بالجمعية الملكية للمهندسين ؛ واختير ممثلاً جامعياً فى مجلس جامعة كامبريدج . واختير عمدة للمدينة سنة ١٩٠٠ م . وله على المكفوفين من طلاب العلم العالى فضل عظيم . فقد اشترك فى طبع كتب لهم على طريقة « برايل » فسهل عليهم الدراسة فى كتب يقرأونها بأطراف أصابعهم ، لا بأبصارهم ...

ولعل القراء يذكرون فصلاً ترجمته مجلة المختار خلاصة لكتاب ألفه كفيف اسمه «كارستن اونستاد» وعنوان الكتاب « العالم عند أطراف أصابعى » ، وهو ترجمة لحياة حافلة بالمغامرة والبطولة والنضال من شاب فَقَدَ نعمة البصر وهو دون الثلاثين . وهذا الكتاب يذكرنا بكتابين نفيسين للسيدة هيلين كيلر ؛ الأول « قصة حياتى » والثانى « العالم الذى أعيش فيه »

والمكفوفين نوادر وطرائف لايخلو منها كتاب من كتب الأدب والتاريخ ، وقد صنع فيهم صلاح الدين الصفدى كتابه المشهور « نكت الهميان » الذى أشرف على طبعه المرحوم أحمد زكى باشا رحمه الله .

محمد عبد الغنى حسن

---

(١) حدثنى عن هذه الرسالة الأستاذ الجليل إسعاف بك النشاشيبى وله فى خطرها رأى رجيح .

مصادر البحث :

١ The History of the Education of the Blind - By Illing worth.
٢ La vie des aveugles
٣ نكت الهميان
٤ تهذيب الاسماء واللغات للنووى

إدارة البلديات ـ مبانى

تقبل العطاءات بمجلس أخميم المحلى لغاية ظهر ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ عن عملية ترميم السلخانة وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس المذكور على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما نظير ٥٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد ٢٩٦٢